المقتطف

الجزء الاول من المجلد التاسع والعشرين

١ يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٠٤ — الموافق ١٣ شوال سنة ١٣٢١

الفيلسوف هربرت سبنسر

انانا نعيُ فريد العصر ووحيد الدهر شيخ الفلاسفة والباحثين ونابغة القدماء والمحدثين الفيلسوف هربرت سبنسر فكأنما نعي الينا اعظم فقيد في مصر كما شق منعاهُ على اهل كل صقع وقطر لانهُ ان كانت انكلترا قد فقدت بفقدهِ اعقل ابنائها فقد فقد العالم بموتهِ اعظم رجالهِ وزال آخر فيلسوف من فلاسفة القرن التاسع عشر بزوالهِ وبقي مكانهُ في المجتمع الانساني فارغاً والبعد بينهُ و بين اقرب الناس اليهِ عظيماً شاسعاً فلا يعلم الاَّ الله كم عصر يمر قبل ان يرزق العالم من يقوم مقامهُ او يجود الدهر بمثلهِ من النوابغ الذين يظهرون في الارض هدًى للنفوس ومشكاة للعقول

لا حرج اذا قلت ان فقيد العالم امتاز بقوة عقلهِ وسعة علمهِ وسمو مبادئهِ وحسن سيرتهِ وكبر همتهِ وعظم جهدهِ وتمام زهدهِ وابتعادهِ عن اتجاد العالم الباطلة ورغبتهِ في خدمة العالم والحقيقة والفضيلة . فقد شهد لهُ باكثر من ذلك من لا أُعَد في بحر علمهم قطرة ولا احسب في طود فضلهم ذرة . اشار اليهِ العلامة دارون الطائر الصيت في مشارق الارض ومغاربها بقولهِ "فيلسوفنا الكبير" وقال جون ستيورت مل الفيلسوف الانكليزي الاقتصادي في وصفهِ انهُ "دائرة للمعارف ومحيط للعلوم" ولقبهُ هكسلي ورد بيتشر من نوابغ الاميركيين "بملك الفلاسفة في هذا العصر" وحار الاستاذ مكوش الفيلسوف الاميركي الكبير في قوة عقلهِ فكان يقول "ان عقلهُ جبار العقول" وقال الرئيس برنارد في كلامهِ عنهُ "ولست اوفيهِ حقهُ ان قلت انهُ اشد اهل هذا العصر تبحراً واتقنهم رأياً وفكراً لانهُ اعظم من قام في الارض مجلّى واوسع بني البشر عقلاً ونهىً" . ولو شئت سرد الاقوال على هذا النمط لضاق عنها المقام وسئم طولها القراء

ولا غرو فقد شاد سبنسر للفلسفة اسمى صروح توصلت اليها عقول البشر فقاقت فلسفتهُ

فلسفة ارسطو وسبينوزا وكنت وهجل وشوبنهاور واوغست كونت وغيرهم من اقطاب الفلسفة الذين نبغوا في العصور الغابرة والايام الحاضرة وقد بناها على أُسس الحقائق العلمية لا على القضايا المركبة من مواد الفرض والظن والحدس والتخمين وسماها فلسفة التركيب واودعها بطون عشرة مجلدات ضخمة قضى على تدوينها وتأليفها ستًّا وثلثين سنة عدا الزمن الذي قضاهُ قبل ذلك على تأليف الفصول والاجزاء العديدة التي ادرجها فيها . ومدارها كلها من اولها الى آخرها على ان الارتقاء من البسيط الى المركب ومن المتماثل الى المتنوع هو سنَّة هذا الكون وان كل ما فيهِ من السديم الذي يقال ان الارض كونت منهُ الى الانسان اكمل الكائنات الارضية باقوالهِ وافعالهِ وافكارهِ وتصوراتهِ وآرائهِ ومعتقداتهِ جارٍ على تلك السنة وخاضع لها

توفي هربرت سبنسر في مدينة بريطن قرب لندن صباح الثلثاء في ٨ ديسمبر ١٩٠٣ في الرابعة والثمانين من عمرهِ ولم يكن الاَّ ممرضتهُ وكاتم سرهِ (سكرتيرهُ) حين وفاتهِ بجانب سريرهِ وكان موتهُ عاقبة الانحلال الطبيعي لا لمرض من الامراض فانهُ ضعف في اواخر عمرهِ ولزم السرير منذ اشهر ولكن لم يشتد الضعف عليهِ الاَّ قبل وفاتهِ بايام ولم يسمح بنشر شيء عن صحتهِ حتى انذر الطبيب بقرب الاجل فجعلت الجرائد اليومية تنشر النشرات الصحية عنهُ الى ان ادركتهُ منيتهُ . ولم يذع نعيهُ حتى توالت التعازي البرقية على منزلهِ من بلاد الانكليز ومن سائر الممالك والاقطار وابنتهُ جرائد العالم المتمدن اعظم تأبين وقد رأينا في الاخبار الاخيرة ان ملك ايطاليا ارسل رسالة برقية الى منزلهِ يتأسف فيها على فقدهِ شديد الاسف ويذكر ما لهُ في نفسهِ من الوقار والاحترام وابنهُ مجلس نواب ايطاليا فتكلم فيهِ بعض اعضائهِ ثم وكيل المعارف فرئيس المجلس بلسان الدولة والامة ثم ارسل وزير المعارف في ايطاليا يأمر سفيرها في لندن بارسال رسالة تعزية بوفاتهِ

واوصى سبنسر قبل موتهِ ان تحرق جثتهُ وان لا توضع الازهار على نعشهِ ولا يلبس احد السواد حداداً عليهِ وان يؤبنهُ صديقهُ الحميم المستر جون مورلي الفيلسوف السياسي المشهور باقوال وجيزة ساعة دفنهِ . واتفق ان مورلي كان غائباً حينئذٍ في صقلية لا يستطيع الوصول يوم دفنهِ فابنهُ المستر ليونارد كورتني من اصدقائهِ على مسمع جمهور من نطاحل العلماء ونخبة رجال الادب والفضل

وتُشبه حياة هربرت سبنسر بسلسلة كل حلقة من حلقاتها العديدة فعل من اعظم الافعال التي اتمها وسط الشدائد والمشقات والاهوال فقد جاهد في بدء امرهِ جهاد الابطال في قتال الفقر وقهر العسر لانهُ لم يكن ذا ثروة يعتمد عليها ويتفرغ للفلسفة أمنًا شر الفقر وهمَّ الحاجة وابتدأ بتصنيف كتبهِ وطبعها وهو قليل المال فلم يقبل الناس على مشتراها كما هو شأنهم في كل

بحث دقيق عويص نخسر بطبعها اكثر ما كان عندهُ من المال وقال في هذا الصدد انهُ لما بلغ الثلاثين من عمرهِ واراد ان يطبع كتابهُ عن الاحوال التي لا غنى عنها لسعادة الانسان لم يجد صاحب مطبعة ولا صاحب مكتبة يطبعهُ على نفقتهِ كما هو المعتاد مع المؤلفين الاوربيين لان ابحاثهُ فلسفية عويصة فطبعهُ على نفقتهِ وكان عدد نسخ الطبعة الاولى ٧٥٠ نسخة فقط فكسدت كساداً شديداً ولم تنفق الاَّ بعد اربع عشرة سنة. وبعد طبعهِ بخمس سنوات طبع كتابهُ في الفلسفة العقلية (السيكولوجيا) واهدى عدداً كبيراً من ٧٥٠ نسخة طبعها منهُ فظل ما بقي منها اثنتي عشرة سنة حتى نفد ثم طبع مجموع مقالات لهُ ولكنهُ لم يطبع غير ٥٠٠ نسخة منها حذراً من الخسارة كأنهُ علم بالاختبار ان كتبهُ تشبه كتب مؤلفي الشرق في الرواج ومع ذلك لم تنفق هذه ايضاً الاَّ بعد مضي عشر سنوات وستة اشهر على طبعها

على ان ذلك لم يكن ليثنيهُ عن عزمهِ بل انهُ لما بلغ الاربعين من العمر عقد النية على طبع فلسفتهِ واعلن انهُ يطبع اربعة اجزاء سنوياً منها للمشتركين ثم يصدرها في مجلدات للمشترين. فخسر على المجلدات الثلثة الاولى منها كما خسر على ما طبعهُ قبلها حتى رأى انهُ اوشك ان يمسي صفر اليدين وانهُ واقع في الافلاس لا محالة اذا لم يتدارك امرهُ بالحكمة فاعلن للمشتركين انهُ اوقف اصدار فلسفتهِ وبقي منغَّص العيش يتحسر ولكن شاء القدر ان لا يحرم العالم ثمرات عقلهِ فاصاب مالاً بميراث فاستأنف في الحال ما كان قد اوقفهُ ولم يطل عليهِ المطال حتى اخذت كتبهُ تروج بعد طول الكساد وجعل يربح منها ما يستعين بهِ على طبع غيرها حتى استرد نفقات طبعها بعد اربع وعشرين سنة ففضى ربع قرن يجدُّ بلا اجرة ولا مكافأة ولا مطمع غير اثبات ما يعتقدهُ حقاً وخدمة نوع الانسان

ولو كان الفقر وحدهُ خصمهُ لهان ولكن اعترض لهُ خصم اشد منهُ واعند وهو الضعف والسقام فانهُ لشدَّة ما اجهد دماغهُ بالاشغال العقلية لم يطبع كتابهُ في الفلسفة العقلية حتى اصابهُ ضعف عصبي شديد منعهُ عن الشغل العقلي مدة سنة ونصف وتركهُ بين مجيح وعليل حتى انهُ لما اعلن عزمهُ على اصدار مجلداتهِ العشرة الفلسفية بعد ذلك بخمس سنوات كان ضعف الاعصاب قد ازمن معهُ فلم يكن يستطيع الشغل غير ثلاث ساعات او اقل في اليوم ولذلك كانوا يعدون نجاز عملهِ العظيم ضرباً من المحال ولم يكد يصدر الفصل الاول من المجلد الاول منها حتى عاودهُ الضعف العصبي بشدة اضطرتهُ الى الانقطاع عن الاشغال مدة من الزمان غير انهُ قابل العلل والسقام بالاحتراس ومداراة صحتهِ وترتيب اشغالهِ ومعيشتهِ والمحافظة على قوتهِ ليبذلها كلها في شغلهِ فقضى حياتهُ يعتل احياناً اسابيع واحياناً اشهراً او

سنين ثم يعود الى التصنيف والتأليف حتى اكمل عملهُ العظيم سنة ١٨٩٦ وعاش بعد اكمالهِ اعواماً اثبت فيها فائدة الاعتناء والمداراة في حفظ الصحة والحياة وسط العلل والسقام

ويتبادر الى الوهم ان هذا الفيلسوف عاش عيشة النسَّاك لا يعاشر احداً ولا يهتم بامور العالم ولا يبالي بما يجري حولهُ من الحوادث او ما يجدُّ من المسائل والمشاكل والواقع انهُ بقي طول ايامهِ شديد الاهتمام بحوادث الايام كثير الخوض في المسائل العمومية سياسية كانت او اجتماعية حتى انهُ لما عادهُ صديقهُ المستر ليونارد كورتني قبل وفاتهِ باربعة اسابيع جعل سبنسر يحدثهُ في السياسة المالية التي هي شغل الانكليز الشاغل في هذه الايام ويستنكر سعي البعض في تقييد حرية التجارة لانهُ مناقض للحرية الشخصية . ولما هاجت الحرب بين الانكليز والبوير انتصر للبوير على قومهِ وتحسر وتأسف على ذهاب ثروتهِ وعجزهِ في شيخوختهِ عن الجهاد لمنع تلك الحرب او ابطالها قبل استفحال شرها فانهُ كان اشد الناس كرهاً للحروب لاعتقادهِ انها من اسباب تفقير العمران ولا يجيزها الاَّ اذا كانت دفعاً للتعدي على الوطن ويكرهُ نظام الجندية بحجة انهُ من عوامل الاستبداد وانهُ يقيد الحرية ويحول دون الاستقلال ويلقي البوار في الصناعة والتجارة ويضعف حركة الاعمال . وكان ايضاً خصماً الاشتراكيين في مذهبهم يعدهُ ضرباً من الاستبداد ويقول ان كل فرد من افراد الهيئة الاجتماعية يجب ان يكون حرًّا مطلقاً من كل قيد الاَّ ما يقيدهُ عن التعدي على حرية غيرهِ

وكان يقول انهُ يجب على الانسان ان يجعل العلم والعمل واسطة لادراك السعادة والنعيم لا ان يجعلهما غاية حياتهِ . وكان يخص بعض وقتهِ بالراحة من عناء الاشغال ويقصد نادي "الاثينيوم" يتسلى فيهِ بلعب البلياردو وكان مولعاً بلعبهِ ويقصد ايضاً مشاهدة التمثيل ويفضل الهزلي منهُ على سواهُ فينظر الى العاب الناس الهزلية ويغرب في الضحك . وكان يحب زيارة الاخصاء ويحدثهم حديثاً طلياً يسحر بهِ سامعيهِ . وقد امتازت احاديثهُ ببساطتها وخلوها من كل ما تشتم منهُ رائحة الكبر والادعاء وكان مغرماً بسماع الموسيقى ويحسن التصوير والتلوين بالماء ويحب صيد السمك بالصنارة من الجداول والغدران

وكان يجري في التأليف احياناً على طريقة غير مألوفة فيذهب مع كاتبهِ الى بحيرات اسكتلندا وهناك يملي عليهِ ربع ساعة ثم يترك الشغل العقلي ربع ساعة يركب فيهِ قارباً ويجذف حتى تنشط الدورة الدموية بحركة التجذيف الرياضية ثم يعود الى الاملاء . وكذلك كان يأخذ كاتبهُ معهُ في لندن الى ساحة تلعب فيها الالعاب الرياضية فيملي عليهِ قليلاً ويلعب قليلاً . والَّف فصولاً كثيرة من فلسفتهِ العقلية وهو يتنزه صباحاً في حديقة متحف التاريخ الطبيعي

بلندن وكان يحسب ان املاء الف كلمة صباح كل يوم شغل كافٍ قبل الظهر

وكان لا يقرأ كثيرًا ولكنهُ يستوعب ما يقرا وقلما كانت تفوتهُ قراءة ما لهُ علاقة بمباحثهِ. قال مرة لو كنت اكثر من القراءة كغيري لكانت معارفي قليلة كمعارفهم

غير انهُ مال الى العزلة في اواخر سني حياتهِ وامتنع عن معاشرة الناس ولم يكن يقابل غير افراد من اخص الاخصاء وبعض القصاد من اقاصي البلدان لان الكلام كان يتعبهُ ويضنيهِ فيضطر الى تقصيرهِ حفظًا لصحتهِ ولكن ظلت الموسيقى تسليتهُ العظمى فكانت سيدة من الضاربات على البيانو تأتي بيتهُ كل يوم وتضرب لهُ بعض الالحان

هذا وقد اسعدني الحظ بمقابلتهِ ومحادثتهِ غير مرة في بريطن منذ اربع سنوات . ورأيتهُ حنطي اللون اشهل العينين مستقيم الانف كبير الرأس اصلعهُ من الامام ولكن شعرهُ طويل في ما بقي يكاد يغطي اذنيهِ فيزيد منظرهُ جلالاً ووقارًا وقد اطلق عارضيهِ وكان لا يزال اشمط لم يبيض شعرهُ بالشيب تمامًا . وبقي طول ايامهِ اعزب وعاش مثالاً للعفة والفضيلة يقول ويفعل ويعمل بما يعلم ولم يحد يمنةً ولا يسرةً عن المبادئ التي كان يوصي الناس باتباعها فناق في فضلهِ كما فاق في عقلهِ . وبقي صحيح الادراك حاد الذهن الى ان جاءتهُ ساعة النزع فغاب حينئذٍ عن وجدانهِ حتى وافتهُ المنية وحجبتهُ بحجب الابدية

وقد كتب ترجمة حياتهِ بيدهِ واوصى بطبعها بعد مماتهِ فبات العالم ينتظر التعزي بها عنهُ والتأسي عن فقدهِ بتجلي عرائس فكرهِ

سليم مكاريوس .

[المقتطف] وفي الرابع عشر من الشهر أُتي بجثة سبنسر الى المحرق في مدينة لندن حيث جرت العادة ان تحرق جثث الناس بوصية منهم لان ذلك انفع لصحة الاحياء من دفنها في التراب . ولم يلبس احد من مشيعي الجنازة لباس الحداد عملاً بوصيتهِ واجتمع جم غفير عند المحرق من اصدقائهِ ومريديهِ مثل مسز وردالكاتبة الشهيرة والمستر ليونلد كورتني احد وزراء انكلترا السابقين وارملة تندل وارملة غرانت الن. ومن مشاهير العلماء السر تسلتون دير والاستاذ جمس دُوَر والسر هنري طمسن والسر ميخائيل فوستر والدكتور رتشرد غارنت والمستر فرنسيس غالتون والاستاذ ملدولا والاستاذ وليم هدصن وكثيرون غيرهم . ولما وُضع التابوت امام باب المحرق وقف المستر ليونلد كورتني وابن الفقيد بالخطبة التالية قال ما ترجمتهُ

لستُ اهلاً للقيام بهذا الواجب الاشرف الذي دعيتُ لهُ . وعليَّ ان اعترف بذلك بصدق واخلاص في فاتحة الكلمات التي سأتلوها على مسامعكم . ولا يحقُّ لي ان ادَّعي بانني درست مؤلفات سبنسر الدرس الواجب ولا لي الشرف ان اكون من عداد تلامذتهِ . وانتم تعلمون

انهُ رغب اولاً في ان يكون المؤبن لهُ رجلاً آخر رجلاً نعرفهُ كلنا ونحترمهُ ألا وهو جون موردلي ولو كان هو المتكلم الآن لكان كلامهُ جديراً بفقيدنا ومآثرهِ . ولكن اشتغالهُ الدائم اربع سنوات متواليات انهك قوتهُ واضعف صحتهُ فاضطرَّ ان يطلب الراحة والعافية بالسفر في البحر المتوسط وبلغتهُ وفاة هربرت سبنسر وهو في سواحل صقلية وقد استراح من عناء الاشغال وعاد اليهِ نشاطهُ المعتاد ولكن الشقة طويلة فيستحيل عليهِ ان يصل الى هنا اليوم لو كرَّ الينا راجعاً . فقيل لي ان الفقيد اوصى بان اقوم مقام جون موردلي اذا تعذر عليهِ حضور جنازتهِ وبلغني هذا الخبر منذ اربعة ايام وانا في العاصمة الشمالية وكنت غائصاً في بحار الاشغال منهمكاً في مهام اخرى ولكنني لم ارَ لي بدًّا من ان البي هذه الدعوة وهنذا اطلب العفو منكم عمَّا يبدو مني من القصور فاني ليخور عزمي ويعروني الوجوم حينما اتصوَّر مقدار الجماهير الغفيرة من العلماء والادباء في كل الاقطار الحاضرين معنا الآن نفسًا ان لم يكن جسدًا لكي يعربوا بملء الشكر والمسرَّة عما للفقيد من الفضل عليهم . ولكنني لا احجم عن ذكر بعض الشيء مما لهُ علاقة خاصة بالفقيد . فلقد تعرَّفت بهِ منذ سنوات كثيرة وبعد اكثر من عشرين سنة عاشرتهُ فتمكنت عرى المودة بيننا لاسيما بعد ان دخلت في عائلة كان فيها ضيفًا كريمًا وصديقًا حميماً ورأى بناتها يجاوزن سن الطفولة فالصبوة فصرت شريكًا لهنَّ في ما يعلمنهُ من امرهِ وزادت مودتنا احكامًا وصداقتنا تمكنًا ولاسيما في السنوات الاخيرة اذ كنت ارتشد بارائهِ في اشغالي العمومية

واول ما يخطر على بال من ينظر الى حياة سبنسر هو الإعجاب بالكتب الكبيرة التي صنَّفها والشكر والمسرَّة لانهُ عاش حتى اتمها . فانهُ ما من احد من الفلاسفة ابتدأ عملاً كبيرًا مثل عملهِ واستطاع ان يقوم بهِ الى آخرهِ . حتى لقد حسب الناس ان اللائحة التي نشرها سنة ١٨٦٠ عمَّا عزم على تأليفهِ من الكتب حلم لا يرجى اتمامهُ لما قد يعترضهُ من العقبات الجمَّة . وقد اعترضتهُ هذه العقبات فقام ضعف صحتهِ في وجههِ واضطرَّهُ الى تأجيل عملهِ ان لم يكن الى العدول عنهُ . ولم يكن على ثروة طائلة تكفي للانفاق عليهِ فنفد ما عندهُ من المال سريعاً . وقد سهل التغلُّب على العقبة الثانية لانهُ حالما اعلن عزمهُ على توقيف التصنيف والنشر جاءتهُ المساعدة المالية الكافية فان قرَّاء كتبهِ كانوا قد زادوا اكثر مما ظن فاجتمع مريدوهُ في اميركا وقدَّموا لهُ مالاً لاستمرار العمل وزاد المبيع من كتبهِ حالاً فربح منها ما يكفي لطبع باقيها . اما اعتلال صحتهِ فبقي عقبة كبيرة في سبيل الاسراع في تأليفهِ لانهُ اضطرَّ ان يقتصر على ساعات قليلة كل يوم وان ينقطع احيانًا عن التأليف زمانًا طويلاً . ومن الغريب انهُ استطاع ان يؤلف ما ألفهُ مع ما كان في صحتهِ من الاعتلال . وقد مرَّ ست وثلاثون سنة من حين شرع في تأليفهِ

هذه الكتب الى ان انتهى . ولا غرابة في ذلك نظرًا الى اتساع نطاقها وغزارة مادتها فان كل حوادث التاريخ ومسائل العلم ومطالب الفلسفة وشعائر الاديان وكل الدرجات التي تدرَّج فيها ارتقاء الانسان جُمِعت معًا واستُنتِجت منها نتيجة بديعة ساطعة وهي كيف نشأ العالم . فبهذا الاتفاق الذي وجده سبنسر بين مصادر متخالفة و بهذا الارتباط الذي بيَّنهُ بين موارد منفصلة متشعبة قامت عظمتهُ وشعر الالوف من قرَّاء كتبهِ المتتابعة باكتشاف اسارب عظيم بديع للارتقاء لم يكن معروفًا من قبلُ . وان كان البعض قد ظنوا ان هذا البحث يصل الى حد لا يتعداهُ او انهُ قاصر عن ايضاح بعض الغوامض او ضعيف في بعض المقدمات فلا شبهة في ان جمهور القراء في العالم المتمدن كلهِ مقتنع تمام الاقتناع ان سبنسر افاد بمؤلفاتهِ واختطَّ خطة جديدة للبحث سيكون لها شأن كبير في تعليم الناس وتهذيبهم

نعم ان اول ما نعجب بهِ في مؤلفات سبنسر هو اتساع نطاقها وقوة حجتها وشمول النتيجة الساطعة التي وصل اليها ولكن يجب ان لا ننسى ان غرضهُ الاول والاعظم منها انما كان نفع نوع الانسان . فلما ترجَّح لهُ ان صحتهُ لا تمكنهُ من اتمام مؤلفاتهِ كلها بادر الى اتمام الفرع الذي حسبهُ انفع من غيرهِ لنوع الانسان وهو البحث عن الاصول التي تبنى عليها المعاملات الشخصية والسياسية (العمومية) لان غايتهُ القصوى كانت اكتشاف الاصول الحقيقية التي تبنى عليها المعاملات فلما رأى ان عمرهُ قد ينقضي في الاعمال التمهيدية فلا يصل الى مقصدهِ الجوهري تركها وبادر اليهِ . وكانت الاصول التي وصل اليها في بحثهِ التمهيدي قد فتحت لهُ السبيل للوصول الى هذا المقصد لان توازن القوى الطبيعية الذي وجد انهُ يعلِّل كل الحركات المادية رأى لهُ مثيلاً في توازن القوى المتسلطة على نوع الانسان في ارتقاء جماعاتهِ . ورأى ان المزية الكبرى هي للحرية الشخصية وان عليهِ ان يقاوم بكل جهدهِ اعتداء ما وضعتهُ الجماعات من القوانين التي تعارض مصالح الافراد . ويحق لنا ان نقول انهُ عرف ما سيؤول اليهِ الارتقاء اخيرًا ولكننا لا نستطيع كاننا ان نجاريهُ في تطبيق هذه المبادىء على احوال الناس . واننا لنجهل امر المستقبل ولا نعلم من الحاضر الاَّ القليل ومع ذلك نثق ان النظام سيسود في مستقبل الايام من غير عنف وان الحرية الشخصية ستكون تامة . وعلينا في الوقت الحاضر ان نمنع كل اعتداء عليها

ورأى في اخريات ايامهِ ما احزنهُ من سير البعض على خطة تخالف مبادئهُ ولو ظاهرًا وتكلم قبيل وفاتهِ مع سيدة كانت اولاً من اتباعهِ ثم مالت الى حزب القائلين بجمع رأس المال (١) فقال لها لقد افترقنا ولكنني اعلم اننا نقصد الى غاية واحدة ولو طلبناها في سبيلين مختلفين .

(١) حزب من الاشتراكيين يقول بان راس المال يجب ان يكون ملكًا للجماعة كلها لا للافراد

فقالت نعم وقد تُكتشف طريقة اخرى للوصول الى هذه الغاية غير طريقتك وغير طريقتنا . فقال لها نعم قد يكون ذلك . ويظهر من هذا ان عقلهُ بقي حتى الاسبوع الاخير من عمره مستعدًّا لقبول الآراء الجديدة

ولا بدَّ لنا ونحن واقفون امام هذا الجسد الذي سيصير بعد قليل حفنة من الرماد ان نتبع سبنسر في ما حاولهُ اخيرًا من اكتشاف حلٍّ لمسائل الحياة العويصة . والفصل الاخير من كتابهِ الاخير يتعرَّض لهذه المسائل ويعرض رايهُ فيها وحكمهُ في غوامض الكون . فقد افصح فيهِ عما خامرهُ من الدهشة حينما نظر في هذا الكون الواسع الذي لا حدَّ لهُ وفي شرائعهِ الخالدة التي كانت قبل الخلق والنشوء . والآن وقف عقلهُ عن عملهِ وبطل ما يدلُّ على الشعور بالموجودات فهل يبقى وجدانهُ بعد زوال آلتهِ وهل الروح التي كانت في هذا الجسد خالدة مثلهُ غير فانية او ترجع الى القوة الازلية التي صدرت منها كما تصدر الشرارة من النار . وان كانت لا تفنى في المستقبل افليس انها لا تستطيع ان توجد من نفسها كما لا تستطيع ان تفنى . استاذنا لا يعلم ذلك ولا يدَّعي علمهُ لانهُ فوق طور العقول . وقد تزيد معارف الناس ويقل ما يجهلونهُ على توالي العصور ولكن المجهول يبقى كثيرًا جدًّا بالنسبة الى القليل الذي نعلمهُ . وقد يتصل الناس الى معرفة شيء مما يُحجب الآن في عداد ما لا تدركهُ الافهام ويبقى السر الاعظم وراء طور العقول ولكننا لا نُغنى من الاشتغال في النهار قبل ان يدركنا الليل . واذا امكننا الاشتغال فليكن شغلنا في ما هو شريف ونافع في ما يزيد حياة الناس قوةً واتساعًا ويعلي شان الفضيلة . هذا هو السبيل الذي سار فيهِ سبنسر فانهُ وقف نفسهُ لخدمة ابناء نوعهِ مثل افضل الرجال المتمدنين الى مذهب ديني مخصوص . فالوداع الوداع ايتها النفس الخالدة الاثر التي لا تزال تكلمنا وسيبقى صوتها مسموعًا مدى العصور التالية

ولما تمَّ هذه الخطبة فُتح باب المحرق وزُجَّ النعش فيهِ ثم وقف رجل هندي اسمهُ شياماجي كرشنا فرما وقال "كلمتين من رجل هندي بعد الخطبة البليغة المؤثرة التي سمعناها من الخطيب . ان اسم سبنسر يدور على لسان كل واحد من ابناء بلادي المتعلمين . وانا نفسي مديون دينًا كبيرًا لهذا الرجل العظيم الصالح الذي ننتدب كلنا فقدهُ . وعلامةً لاحترامي لهُ احب هبة طفيفة دليل الشكر لهُ وهي الف جنيه اقدمها الى مدرسة اكسفرد التي تعلمت فيها يخصص ريعها لخطبة تخطب سنويًّا تذكارًا لهذا المحسن على نوع الانسان . واذا لم تقبل مدرسة اكسفرد ذلك مني فاني سأعرضهُ على مدرسة لندن وارجو من اصدقاء سبنسر ان يساعدوني في اقناعها بقبول ذلك . واشكركم في الختام لانكم سمحتم لي باظهار ما للتقدير عليَّ من الفضل في هذا الموقف الرهيب"